تعليقات فضيلة الشيخ

صالح بن فوزان الفوزان

على كتاب

إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان

للإمام ابن القيم رحمه الله

«الشريط الثالث عشر»

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد، قال المؤلف رحمه الله تعالى:

الوجه السابع: أن اعتماد العبد على المخلوق وتوكله عليه يوجب له الضرر من جهته هو ولا بد، عكس ما أمله منه، فلا بد أن يُخذل من الجهة التي قدَّر أن ينصر منها، ويذم من حيث قدر أن يحمد.

الشيخ: بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ، الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا مُحَمَّد، الله جل وعلا أمر بالتوكل عليه وحده، والتوكل على الله معناه: تفويض الأمور إلى الله عز وجل، والاعتماد عليه في قضاء الحاجات وتفريج الكربات، وحل المشكلات، قال الله جل وعلا﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣﴾ [المائدة: ٢٣] وقال سبحانه وتعالى ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾[الطلاق: ٣] يعني كافيه.

إذا توكلت على الله كفاك، وليس التوكل باللسان فقط؛ تقول توكلت على الله بلسانك؛ إنما هو بالقلب وباللسان، والتوكل من أعظم أنواع العبادة﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾[هود: ١٢٣] من أعظم أنواع العبادة لما فيه من الاعتماد على الله والاستغناء عما سواه، وهذا هو التوحيد في الحقيقة، من توكل على الله صادقا كفاه الله ما أهمه، ومن توكل على غيره وكله الله إلى من توكل عليه، ولن يفيده شيئا لأنه مخلوق ضعيف قد يكون أقل منه وأعجز منه، لاسيما إللى يتوكل على الأموات وعلى الأضرحة؛ يتوكل على أناس ميتين لا حيلة لهم، ﴿وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا ٣﴾[الفرقان: ٣] هذا ضياع، التوكل على غير الله ضياع، من توكل على غير الله وكله إلى من توكل عليه، ولهذا في الحديث «من تَعَلَّق شيئًا وُكِل إليه» عقوبة له، فهذا الباب باب عظيم، باب التوكل على الله.

التوكل على الله مع الأخذ بالأسباب، ما يتوكل على الله ويترك الأسباب يقول يكفي التوكل على الله؛ نعم التوكل على الله هو الأصل لكن الله أمر بالأخذ بالأسباب مع التوكل على الله، فلا يعتمد على التوكل ويترك الأسباب، ولا يعتمد على الأسباب ويترك التوكل على الله، بل لابد من الجمع بينهما، ولهذا لما سأل رجل النبي ﷺ عن ناقته هل يعقلها؟ يعني يوثقها في عِقال، أو يتوكل على الله عز وجل ؟

قال له النبي ﷺ «إِعْقِلْهَا وتوكَّل»، إعقلها : هذا فعل السبب، وتوكل علي في حفظها، إجمع بينهما.

المتن: لوجه السابع: أن اعتماد العبد على المخلوق وتوكله عليه يوجب له الضرر من جهته هو ولا بد، عكس ما أمَّله منه.

الشيخ: من جهة المتوكل عليه عكس ما أمّله المتوكل من جهة أنه ينفعه، يكفيه، يقضي حاجته.

المتن: فلا بد أن يُخذل من الجهة التي قدر أن ينصر منها.

الشيخ: لابد أن يُخذل؛ الذي يتوكل على غير الله، لابد أن يخذله الله عز وجل وأن يكله إلى من توكل عليه.

المتن: ويُذم من حيث قدَّر أن يحمد.

الشيخ: يُذم لأن التوكل على غير الله مذموم، وهو يظن أنه مَحمدة ومرغوب فيه.

المتن: وهذا أيضا كما أنه ثابت بالقرآن والسنة فهو معلوم بالاستقراء والتجارب.

الشيخ: كما أنه ثابت بالكتاب والسنة أن التوكل على غير الله خذلان، فهو أيضا ثابت بالتجارب - تجارب الناس- الذين استعملوا التوكل على غير الله خُذلوا.

المتن: قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزًّا ٨١ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا ٨٢﴾[مريم: ٨١ – ٨٢]

الشيخ: ﴿وَٱتَّخَذُواْ﴾ أي المشركون ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: غير الله، ﴿ءَالِهَةً﴾ يعني معبودات، الآلهة هي المعبودات إيش قصدهم؟ ﴿لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزًّا﴾ يريدون أن هذه المعبودات تعزهم وتحميهم، قال الله جل وعلا ﴿كَلَّاۚ﴾ هذا نفي؛ أي لا يكونون لهم عزا، ﴿سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ﴾الذين يعبدون غير الله، في يوم القيامة يتبرأ المعبودون من عابديهم، يتبرءون منهم في موقف هم أحوج ما يكونون الى النصرة؛ فيتبرءون منهم﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ ١٦٦ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾[البقرة: ١٦٦ – ١٦٧] يتمنون أنهم يرجعون إلى الدنيا ﴿لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ أي رجوعا إلى الدنيا ﴿فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ﴾، قال الله جل وعلا﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ

أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة: ١٦٧] فيتبرأون منهم يوم القيامة، هذا المآل وهذه النتيجة أحوج ما يكونون إليهم، والله بين هذا والرسول بين هذا لأجل أن نترك التوكل على غير الله عز وجل، ونقتصر على التوكل على الله الذي بيده الأمور.

المتن: ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَهُمۡ وَهُمۡ لَهُمۡ جُندٞ مُّحۡضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [يس: ٧٤ – ٧٥]

الشيخ: ﴿وَٱتَّخَذُواْ﴾: أي المشركون ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾أي غير الله عز وجل، ﴿ءَالِهَةً﴾: أي معبودات كثيرة، لعلهم: إيش قصدهم؟﴿لَّعَلَّهُمۡ يُنصَرُونَ﴾، يريدون أن هذه الآلهة تنصرهم ، قال الله جل وعلا ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَهُمۡ﴾ هذه الآلهة لا تستطيع نصر من اعتمد عليها وعبدها لا تستطيع نصره لأنها هي بحاجة، هي مخلوقات بحاجة إلى من ينصرها، ﴿وَهُمۡ﴾ أي هؤلاء المشركون، ﴿لَهُمۡ جُندٞ مُّحۡضَرُونَ﴾: يدافعون عنهم، المشرك يدافع عن معبوداته، يقاتل دونها، وقد يُقتل، ﴿وَهُمۡ لَهُمۡ﴾أي للمعبودات أو الآلهة ﴿جُندٞ مُّحۡضَرُونَ﴾ يدافعون عنها وهي لا تنفعهم شيئا، هذه حالة المشركين في كل الأوقات، هذه حالتهم مع الرسل، الذين ينهونهم عن عبادة غير الله.

المتن: ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَهُمۡ وَهُمۡ لَهُمۡ جُندٞ مُّحۡضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [يس: ٧٤ – ٧٥] أي: يغضبون لهم ويحاربون.

الشيخ: يحاربون دونهم؛ ولذلك المشركون يقاتلون دون معبوداتهمدون أوثانهم، يقاتلون؛ يبذلون أنفسهم وأموالهم للدفاع عنها.

المتن: أي يغضبون لهم ويحاربون كما يغضب الجندي ويحارب عن أصحابه.

الشيخ: لأنهم جنود لها، يُجندون لها.

المتن: يغضبون لهم ويحاربون كما يغضب الجندي ويحارب عن أصحابه وهم لا يستطيعون نصرهم، بل هم كَلٌّ عليهم.

الشيخ: إي نعم، لا يستطيعون نصرهم بل هم كَلّ على من عبدهم، هم بحاجة إلى من عبدهم، كَلّ، فقراء.

المتن: وقال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾﴾[هود: ١٠١]

الشيخ: لما ذكر الله في سورة هود ما حل بالمشركين من النكال والدمار، ما حل بالأمم من النكال والدمار، قال:﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ الله ما ظلمهم، جازاهم بعملهم﴿وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ هم الذين ظلموا أنفسهم حيث عبدوا غير الله فظلموا أنفسهم، الواجب أن يرفعوا أنفسهم وأن يعزوها، وأن يعلقوها بالله عز وجل؛ لكنهم ظلموها بأن وكلوها لغير الله فضاعت، ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ هم ما ظلموا الله إنما ظلموا أنفسهم، الله ليس بحاجة إليهم ولا نقصوا الله شيئا؛ إنما ظلموا أنفسهم ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ﴾: لما نزل بهم العذاب الذي ذكره الله في هذه السورة ما أغنت عنهم آلهتهم، ما دفعت عنهم آلهتهم القتل والموت والدمار ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴿١٠١﴾﴾: لما جاء العذاب ما نفعتهم ﴿وَمَا زَادُوهُمْ﴾: أي معبوداتهم، ما زادت من عبدها ﴿غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾﴾يعني: خسار والعياذ بالله، وهذه حالة المشركين في كل زمان ومكان، وكل من تعلق على غير الله وعبد غير الله وتوكل على غير الله هذه نهايته، ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾﴾ أي خسار ودمار.

الله جل وعلا قال للمشركين في عهد الرسول ﷺ الذين يعبدون اللات والعزى ومناة، قال:﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [النجم: ١٩ – ٢٠] ما أغنت عنكم شيئا؛ بل ولا دفعت عن نفسها، هذا مع الرسول ﷺ، ولا دفعت عن نفسها، وهذا شيء شاهدتموه ورأيتموه فكيف تعبدون آلهة لا تدافع عن نفسها؟ لكن العقول تذهب والعياذ بالله.

المتن: ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾﴾ أي غير تخسير.

الشيخ: إي نعم ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾﴾[هود: ٦٣]

المتن: وقال تعالى﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾[الشعراء: ٢١٣]

الشيخ: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ أيا كان هذا الإله المعبود من الملائكة من الأنبياء من الصالحين من الأحجار والأشجار من القبور والأضرحة؟

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ بل ادع الله وحده، فإن دعوت مع الله غيره ﴿فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾ هذه النتيجة أن عبادة غير الله تكون عذابا على أصحابها، وهم يُؤَمِّلون فيها الخير والسعادة.

المتن: وقال تعالى:﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإسراء: ٢٢]

الشيخ: يقول الله جل وعلا لنبيه ﷺ وهو نهي لكل الأمة ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ أي لا تعبد معه إلها آخر؛ بأن تدعوه وتنذر له وتذبح له وتتقرب إليه وترجو منه النصر ترجو منه الحماية ترجو منه الرزق، لا تدع مع الله إلها آخر، ماهي النتيجة؟﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾ مذموما من الله جل وعلا، ومخذولا من قِبل تعبده، يخذلونك ولا ينفعونك شيئا، ولهذا قال بعدها﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]

المتن: وقال تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإسراء: ٢٢] فإن المشرك يرجو بشركه النصر تارة، والحمد والثناء تارة، فأخبر سبحانه أن مقصوده ينعكس عليه، ويحصل له الخذلان والذم.

الشيخ: هو يريد أنه يُمدح بهذا والعكس يُذم في هذا، ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا﴾ ، يريد النصر تقعد ﴿مَخْذُولًا﴾ ، فلا يحصل له مدح ولا يحصل له نصر، إنما يبقى مذموما ﴿فَتَقْعُدَ﴾ يعني تبقى مذموما مخذولا عكس ما تؤمِّل.

المتن: والمقصود: أن هذين الوجهين في المخلوق وضدهما في الخالق

الشيخ: الوجهين: هم الذم والخذلان.

المتن: والمقصود: أن هذين الوجهين في المخلوق وضدهما في الخالق.

الشيخ: ضدهما في الخالق: إذا عبدت الله عز وجل فإنك تُمدح بدل أن تُذم، يمدحك الله مدح صحيح حقيقي ماهو مزور، وتُنصر من الله فلا تبقى مخذولا، ينصرك الله عز وجل، ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ ۗ﴾[آل عمران: ١٦٠]

المتن: والمقصود: أن هذين الوجهين في المخلوق وضدهما في الخالق سبحانه، فصلاح القلب وسعادته وفلاحه في عبادة الله والاستعانة به، وهلاكه وشقاؤه وضرره العاجل والآجل في عبادة المخلوق والاستعانة به.

الوجه الثامن: أن الله سبحانه وتعالى غنى كريم، عزيز رحيم، فهو محسن إلى عبده مع غناه عنه.

الشيخ: الله جل وعلا متصف بصفات الكمال، الغنى التام فلا يحتاج لأحد بل كل أحد محتاج إليه، ومع غناه فهو كريم سبحانه، وليس مثل المخلوق الذي إذا زاد غناه زاد بخله؛ بل الله غني كريم، وكل ما تريد منه فهو موجود، إذا أخلصت العبادة له.

المتن: الوجه الثامن: أن الله سبحانه غنى كريم، عزيزرحيم.

الشيخ: عزيز: يعني قوي ، العزة هي القوة والمنعة، الله لا يُغالب سبحانه وتعالى قوي، ومع قوته فهو رحيم، ليس عنده غلظة أو تمنُّع عن مساعدة من لجأ إليه خلاف المخلوق يغتر بقوته إذا كان فيه عنده شيء من القوة يغتر بها، ولا ينفع الضعفاء والمحتاجين ويساعدهم، الله عزيز رحيم سبحانه وتعالى، يرحم الضعفاء والمستضعفين والفقراء .

المتن: أن الله سبحانه غنى كريم، عزيزرحيم رحيم، فهو محسن إلى عبده مع غناه عنه.

الشيخ: يُحسن إلى عبده مع غناه عن عبده، المخلوق يُحسن إليك يرجو منك أن ترد عليه الجميل، أما الله لا يريد منك إلا المدح، ما يريد تعطيه شيئا، أو أن تهدي إليه شيئا، هو غني هو اللي يعطيك سبحانه وتعالى؛ خلاف المخلوق فهو إن أعطاك فهو يريد منك المعاوضة.

المتن: فهو محسن إلى عبده مع غناه عنه يريد به الخير، ويكشف عنه الضر، لا لجلب منفعه إليه من العبد، ولا لدفع مضرة، بل رحمة منه وإحسانا.

الشيخ: قال الله تعالى ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾ [الزمر: ٧] ،﴿إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝٨﴾[إبراهيم: ٨] ما تنفعه طاعة الطائعين وإنما طاعتهم تنفعهم هم، والله أمرنا بذلك لمصلحتنا، لا لمصلحته هو، هو غني عنا وعن عبادتنا؛ ولكنه أمرنا بعبادته لأجل أن يرحمنا، ويجود علينا من فضله سبحانه وتعالى، نحن بحاجة إليه؛ أما هو فليس بحاجة إلينا، ومع هذا يدعونا إلى عبادته، ويأمرنا بعبادته لمصلحتنا نحن، يقول الله جل وعلا﴿۞ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ [فاطر: ١٥] كل الناس فقراء إلى الله ، ما أحد يستغني عن الله، الملوك والسلاطين والأغنياء، فقراء إلى الله؛ إذا نزل بهم شده، نزل بهم مرض،

ما ينفعهم ملكهم ولا سلطتهم ولا غناهم، فقراء إلى الله جل وعلا، ﴿أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ شوف مع غناه فهو حميد سبحانه، يجود على عباده ويرزقهم ويعطيهم، حتى ولو عصوه يعطيهم ويرزقهم، من أين يعيش الكفار والمذنبون إلا من رزق الله سبحانه وتعالى؟

المتن فهو سبحانه لم يخلق خلقه ليتكثر بهم من قلة.

الشيخ: هو قوي لا يحتاج إلى أحد ليتكثر بهم ليدافعون عنه؟ لا، هو الذي يدافع عن عباده، وليس هم الذين يدافعون عنه.

المتن فهو سبحانه لم يخلق خلقه ليتكثر بهم من قلة ولا ليتعزز بهم من ذلة.

الشيخ: بل هو العزيز سبحانه، ماهو بيطلب منهم العزة؛ بل هو العزيز سبحانه بذاته.

المتن: ولا ليرزقوه.

الشيخ: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾﴾ [الذاريات: ٥٧] ، ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]، وعبادتهم لهم ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ﴾ إن الله هو الرزاق﴿وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ سبحانه هو يطعم ولا يُطعَم، غني عن عباده سبحانه وتعالى، فهو الذي يُطعم، فأنت الفقير إلى الله من كل وجه، من كل حالة، فكيف تتكبر عن عبادة الله؟ تحرم نفسك من الإتصال بالله؟ تحرم نفسك من فضل الله؟

المتن: ولا ليرزقوه، ولا لينفعوه، ولا ليدفعوا عنه، كما قال تعالى﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾

الشيخ: ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾الحكمة من خلق الجن والإنس ليعبدوه، والنون هذه ليست نون الفعل إنما هي نون الوقاية؛ أصلها ليعبدوني فحذفت الياء تخفيفا وبقيت نون الوقاية، وإلا لو كانت نون الإعراب لحُذفت لأن الأفعال الخمسة تنصب بحذف النون.

المتن: كما قال تعالى:﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾[الذاريات: ٥٦ – ٥٨]

الشيخ: ﴿هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾: كثير الرزق، ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾[الملك: ٢١]ما أحد يرزقك إن أمسك الله رزقك فلا أحد ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ﴾ ماهو بحاجة إلى أحد قوي سبحانه، قوي في ذاته، لا يعجزه شيء، ﴿ٱلْمَتِينُ﴾ صفة من صفات الله الذي لا يغالبه أحد.

المتن: وقال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِي ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾ [الإسراء: ١١١]

الشيخ: فالله يُحمد على صفاته العظيمة، هو نزه نفسه عن الولد لم يتخذ ولاد ردا على النصارى الذين يقولون المسيح ابن الله واليهود الذين يقولون عزير ابن الله، والمشركون الذين يقولون الملائكة بنات الله، الله لم يتخذ ولدا لأن الولد شبيه لأبيه والله لا شبيه له سبحانه وتعالى، والولد جزء من الوالد؛ والله جل وعلا ليس له جزء من خلقه، ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾يعني ولد؛ لأن الولد جزء من الوالد، وكذلك الوالد يحتاج إلى الولد والله ليس بحاجة إلى الولد فهو غني عن الولد من كل الوجوه.

المتن: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِي ٱلْمُلْكِ﴾

الشيخ: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِي ٱلْمُلْكِ﴾ الملك لله وحده، لمن الملك اليوم؟ يوم القيامة؟ إذا جمع الله الأولين والآخرين يقول ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ﴾ [غافر: ١٦]؟ ما أحد يجيبه، ما أحد يقول لفلان، ثم يجيب نفسه سبحانه وتعالى فيقول ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ ، لله سبحانه وتعالى مالك الملك، ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾[آل عمران: ٢٦] فالملوك الله هو الذي ملكهم وقادر على أن يعزلهم، ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ ولم يكن له شريك نزه نفسه عن الولد ثم نزه نفسه عن الشريك.

المتن: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ﴾

الشيخ: يعني وزيرا أوصاحب يساعده لأنه غني عن ذلك، وليس بحاجة مثل ملوك الدنيا إلى وزراء وإلى أولياء لهم يوالونهم ويعزونهم؛ لا، الله ليس بحاجة إلى ولي من الذل، أما الولي بمعنى العبد الذي يحبه الله من والوَلاية فالله جل وعلى له أولياء؛ أولياء الله ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ

عَلَيۡهِمۡ﴾ [يونس: ٦٢] أولياء الله من هم؟﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٦٣﴾ [يونس: ٦٣] هؤلاء هم أولياء الله، هذا ولي ثابت، أما الولي المنفي فهو الذي يتخذه الملك أو السلطان ليساعده، الله ليس بحاجة إلى من يساعده ويعينه، السلطان والملك يتخذ وليا لأنه ذليل، ولهذا قال ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ﴾ الله جل وعلا عزيز ليس ذليلا، لا يحتاج إلى ولي يساعده ويدفع عنه...إلخ كما يحتاجه المخلوق، لكنه يتخذ وليا من عباده المؤمنين بمعنى المحب، يحبهم ويحبونه.

المتن: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ﴾ فهو سبحانه لا يوالى من يواليه من الذل، كما يوالى المخلوق المخلوق.

الشيخ: هو يوالي بعض عباده لكن ليس من الذل، ولكن هذا من الوَلاية وهي المحبة، أما المخلوق فيتخذ وليا من الذل لأنه ذليل يحتاج إلى من يناصره ويدافع عنه ويعينه.

المتن: وإنما يوالى أولياءه إحسانا ورحمة ومحبة لهم.

الشيخ: إحسان منه إليهم، ورحمة بهم، ومحبة لهم، فالولي معناه المحبوب، من الولاء والموالاة يعني المحبة.

المتن: وأما العباد فإنهم كما قال تعالى﴿وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ﴾ [محمد: ٣٨]

الشيخ: العباد كلهم فقراء ما يُثتنى من هذا أحد، أنتم يا عبادي كلكم فقراء، ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ [فاطر: ١٥] كلهم فقراء إلى الله سبحانه وتعالى.

المتن: وأما العباد فإنهم كما قال عز وجل﴿وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ﴾ [محمد: ٣٨]

الشيخ: الله الغني، له الغنى المطلق، وأنتم الفقراء لكم الفقر المطلق، إلا من رزقه الله وأعزه الله .

المتن: فهم لفقرهم وحاجتهم إنما يحسن بعضهم إلى بعض لحاجته إلى ذلك وانتفاعه به عاجلاً أو آجلاً.

الشيخ: الذي يحسن إلى الناس يرجوهم أنهم يساعدونه، يعينونه، يردون عليه الجميل، أما الله جل وعلا فهو يحسن إلى عباده رحمة بهم، وهو ليس بحاجة إليهم وإنما رحمة بهم.

المتن: إنما يحسن بعضهم إلى بعض لحاجته إلى ذلك وانتفاعه به عاجلاً أو آجلاً ولولا تصور ذلك النفع لما أحسن إليه، فهو في الحقيقة إنما أراد الإحسان إلى نفسه.

الشيخ: حينما يحسن إلى الناس فوهو يريد الإحسان إلى نفسه، يريد أن هؤلاء الذين أحسن إليهم يعوضونه ويردون عليه الجميل، ولهذا لو أساء واحد منهم سار يتشرى عليه أنا أعطيتك كذا أناسويت كذا لك، يعني يتشرى عليه فهو يريد منهم أن يردوا عليه.

المتن: فهو في الحقيقة إنما أراد الإحسان إلى نفسه وجعل إحسانه إلى غيره وسيلة وطريقا إلى حصول نفع ذلك الإحسان إليه، فإنه إما أن يحسن إليه لتوقع جزائه في العاجل، فهو محتاج إلى ذلك الجزاء، ومعاوض بإحسانه.

الشيخ: معاوض من المعاوضة.

المتن: أو لتوقع حمده وشكره.

الشيخ: أو إذا كان إنه ما هو بحاجة إلى رد الجميل فهو يريد أن يحمده ويثني عليه ويمدحه.

المتن: أو لتوقع حمده وشكره فهو أيضاً إنما يحسن إليه ليحصل له منه ما هو محتاج إليه من الثناء والمدح، فهو محسن إلى نفسه بإحسانه إلى الغير.

الشيخ: هذا الإنسان.

المتن: وإما أن يريد الجزاء من الله تعالى في الآخرة.

الشيخ: هذا الإحسان المحمود، إذا أحسن إلى الناس لا يريد منهم إنما يريد من الله، هذا هو الإحسان المحمود ﴿وَأَحْسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٩٥﴾ [البقرة: ١٩٥]،يريد الجزاء من الله ﴿إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ٩﴾[الإنسان: ٩]، بل يريدون من الله.

المتن: وإما أن يريد الجزاء من الله تعالى في الآخرة فهو أيضاً محسن إلى نفسه بذلك، وإنما أخر جزاءه إلى يوم فقره وفاقته، فهو غير ملوم في هذا القصد.

الشيخ: الأخير، غير ملوم في القصد بل هو مُرغَّب فيه.

المتن: فهو غير ملوم في هذا القصد فإنه فقير محتاج، وفقره وحاجته أمر لازم له من لوازم ذاته، فكماله أن يحرص على ما ينفعه ولا يعجز عنه، وقال تعالى:﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ﴾ [الإسراء: ٧]

الشيخ: شوف﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ﴾ ما هو بأنك تحسن إلى المحتاج لأجل نفع المحتاج فقط ولكنك تحسن إليه أيضا تريد من وراءه رد المثل إما في الدنيا وإما في الآخره .

المتن: وقال:﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ٢٧٢﴾ [البقرة: ٢٧٢]

الشيخ : ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ﴾ من صدقات، مساعدات فإنها توف إليكم عند الله جل وعلا وهذا راجع إليكم فأنت تنفق ونفع هذه النفقة راجع إليك.

المتن: وقال تعالى فيما رواه عنه رسوله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «يَا عِبَادِى: إنكم لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِى»

الشيخ: هذا الحديث الطويل العظيم لأبي ذر رضي الله عنه.

المتن: «يَا عِبَادِى: إنكم لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِى ولن تَبْلُغُوا نَفْعِى فَتَنْفَعُونِى، يا عِبَادِى: إنَّمَا هِىَ أَعْمَالُكُم أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرَاً فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ غيْرَ ذلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَهُ».

الشيخ: إنما هي أعمالكم أحصيها لكم فمن وجد خيرا من أعماله وثوابا في الآخرة فليحمد الله على ذلك، الذي وفقه لهذا العمل وتقبله منه وجازاه عليه، يحمد الله عز وجل، ومن وجد غير ذلك وجد ضررا وعذابا بسبب عمله فلا يلومن إلا نفسه، هو الذي قدم لنفسه هذا من الكفر بالله والشرك والمعاصي والسيئات، إنما هي أعمالكم خيرها أو شرها.

المتن: فالمخلوق لا يقصد منفعتك بالقصد الأول، بل إنما يقصد انتفاعه بك.

الشيخ: المخلوق حينما يحسن إليك لا يقصد منفعتك بالوجه الأول؛ إنما يريد منفعة نفسه من وراءك.

المتن: والرب تعالى إنما يريد نفعك لا انتفاعه بك.

الشيخ: يريد نفعك ولا يريد إنتفاعه بك لأنه غني عنك لا يحتاج إليك.

المتن: والرب تعالى إنما يريد نفعك لا انتفاعه بك وذلك منفعة محضة لك خالصة من المضرة، بخلاف إرادة المخلوق نفعك، فإنه قد تكون فيه مضرة عليك، ولو بتحمل منته.

الشيخ: إحسان المخلوق إليك مشوب بالمنة ومشوب بطلب المعاوضة منك، أما الله جل وعلا فإنه يحسن إليك ولا يريد منك إلا الحمد والشكر، ما يريد منك أن ترد عليه.

المتن: بخلاف إرادة المخلوق نفعك، فإنه قد تكون فيه مضرة عليك، ولو بتحمل منته فتدبر هذا، فإن ملاحظته تمنعك أن ترجو المخلوق أو تعامله دون الله.

الشيخ: إنما ترجو الله عز وجل وتتعامل مع الله وتعلق قلبك بالله عز وجل.

المتن: فإن ملاحظته تمنعك أن ترجو المخلوق أو تعامله دون الله أو تطلب منه نفعا أو دفعا، أو تعلق قلبك به، فإنه إنما يريد انتفاعه بك لا محض نفعك، وهذا حال الخلق كلهم بعضهم مع بعض، وهو حال الولد مع والده، والزوج مع زوجته، والمملوك مع سيده، والشريك مع شريكه.

الشيخ: كل يريد النفع لنفسه إذا بذل شيئا للغير، فإنما يريد النفع لنفسه من ذلك الغير.

المتن: فالسعيد من عاملهم لله تعالى لا لهم، وأحسن إليهم لله تعالى، وخاف الله فيهم، ولم يخفهم مع الله.

الشيخ: ولهذا في الأثر "يا عبدي كل يريدك لنفسه وأنا أريدك لنفسك"، وأما الناس فكل يريدك لنفسه، يريد أن تنفعه.

المتن: فالسعيد من عاملهم لله تعالى لا لهم، وأحسن إليهم لله ، وخاف الله فيهم، ولم يخفهم مع الله ورجا الله بالإحسان إليهم، ولم يرجهم مع الله، وأحبهم لِحُبِّ الله، ولم يحبهم مع الله تعالى، كما قال أولياء الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾[الإنسان: ٩]

الشيخ: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾[الإنسان: ٨ – ٩]

المتن: الوجه التاسع: أن العبد لا يعلم مصلحتك حتى يُعرِّفه الله تعالى إياها.

الشيخ: العبد ولو أراد أنه ينفعك ما يعرف منفعتك حتى يُعرفه الله إياها، فقد يريد منفعتك ويضرك من حيث لا يشعر لأنه مايدري حتى يعرفه الله بمصلحتك.

المتن: ولا يقدر على تحصيلها لك حتى يُقدره الله تعالى عليها.

الشيخ: ولو عرف مصلحتك وأراد أن يحصلها لك لن يقدر إلا بأن الله يقدره عليها، قد يعجز عنها.

المتن: ولا يريد ذلك حتى يخلق الله فيه إرادة ومشيئة، فعاد الأمر كله لمن ابتدأ منه، وهو الذي بيده الخير كله.

الشيخ: عاد الأمر كله إلى الله الذي بيده الخير وهو على كل شيء قدير.

المتن: فعاد الأمر كله لمن ابتدأ منه، وهو الذي بيده الخير كله وإليه يرجع الأمر كله، فتعلق القلب بغيره رجاء وخوفا وتوكلا وعبودية: ضرر محض، لا منفعة فيه، وما يحصل بذلك من المنفعة فهو وحده الذي قدرها ويسرها وأوصلها إليك.

الشيخ: لا هذا الذي أمَّلت فيه، ما هو الذي أوصل لك المنفعة إنما الذي أوصلها إليك هو الله على يد هذا.

يكفي.